الفصل الأخير ..
الموتى لا يشيخون

تجديدًا لصيحة الشيخ فريد الشهيرة التى قال فيها :

ـ « صارت مصر المحروسة مليئة بالنحالين.. فارحمنا يا ألله»

قام الشابان معاذ فريد هنيدى، وحسن رأفت إبراهيم بإطلاق صرخة من عندهما فى مدونة «شجرة أبى» فكتبا:

ـ «يمكنكم أن تذهبوا إلى القصر ـ المسروق ـ الذى يقع على مشارف حدائق الملك قرب بلدنا لتروا المشتل الجديد للنحالين الجدد الذين سيهبون على مصر فى مستقبل الأيام هبوب السحابة السوداء وينقضون على أرزاق الناس انقضاض الجراد الجائع ..».

فعباس عبد المحسن إبراهيم النحال المولود عام ١٩٢٠ والمتزوج لأول مرة عام ١٩٤٠ والذى ينحدر من ظهر أب حدائقى لم ينجب إلا ولدًا واحدًا وهو عباس نفسه. هذا الرجل فقد أغلب حواسه البشرية بحكم إيغاله فى عمر تخطى الثمانين عامًا بكثير، لكنه ما زال مخلصًا لموهبته الذكورية فراح يملأ بها ـ عبر زيجات سريعة ومتكررة ورخيصة ـ ملاحق قصر ولده السيد النحال وحجراته وردهاته بالخلفة الطالحة.. ذلك أن هذا الذكر الفرعونى النشط الذى ظل يعمل تحت أرجل البهائم كلافًا منذ تاريخ زواجه الأول أصابته عدوى القفز على الإناث تشبهًا بفحول أبقاره وذكور جواميسه، وكان أن امتد به هذا الحال لأكثر من خمسة وستين عامًا ولا يزال، فاطلبوا الرحمة من الله الواحد المتعال..

ولما وصلتها تساؤلات شتى كلها تعجب واستغراب سارع معاذ فريد بتدوين هذا التوضيح اللازم:

ـ « هذا الفحل البقرى العجوز، المتمتع بآلة ذكورية خرسانية لم يدب فيها الوهن، اتضح أنه يحمل كمًّا هائلًا من البراءة العفوية، فالرجل لم يقصد بهذا الإمعان التناسلى أن يشج رءوسنا بالكرب والكدر وهو ينثُر ذريته كحبوب اللقاح فى شقوق الحياة، الرجل لم يتعمد أن يسد علينا منافذ الأمن والفضيلة، كل ما هنالك أنه يلهو بالشىء الوحيد الذى يعرفه ولا يعرف غيره وهو مفاخذة النساء ثم لا يعنيه بعد ذلك ما يثمر عنه هذا اللهو من أشياء..

فيا أبناء الأجيال القادمة..

نصيبكم من الطرح النحالى استوى..

طرحكم قادم، وسوف يجد مرتعه فى انتظاره..

ولأنه لا شىء قد تغير من مكونات التربة المصرية الصالحة لنمو واستفحال هذه الكائنات..

فليس أمامكم سوى أحد أمرين: «إما أن «تقلبوا» بطن التربة، وإما أن «تقبلوا» طرحها المرير..»

ولم تتوقف المدونة عن السخرية من تمثيلية انتخابات الرئاسة، فتعمدت أن تتحيز لواحد بعينه من المرشحين، فقالت عن الشيخ الصباحى إنه:

ـ «يصلح رئيسًا لهذه البلاد بكل جدارة.. فهو يتمتع بحكمة الشيوخ.. وجسارة الشباب..»

واستمرت المدونة فى القول:

ـ «الصباحى يمكنه أن يأخذ بأيدينا إلى مصاف الدول الراقية.. الصباحى يمكنه أن يجعلنا من عتاة المنافسين فى الإنتاج والتصدير.. الصباحى يمكنه أن يوقف مهزلة استيرادنا لكلّ شىء حتى الأستيكة وعلبة الكبريت.

الصباحى أو ما يماثله من العجزة والعواجيز يمكنهم أن يحققوا المعجزة الاقتصادية المنتظرة شرط أن يخلصوا النية، ولا يعملوا لحساب أنفسهم.

الصباحى يمكنه أن يُحدث نقلة تاريخية لمصر شرط ألا ينشغل عنا بملء خزائنه

وخزائن أولاده بالأموال التى يجب أن تنفق على نهضة هذا الشعب»

وجاءتهما ردود على نفس المنوال فى مدونات أخرى منها مدونة اسمها «الجوع الكافر» قال لهما صاحبها:

ـ «ما لكما تتعجبان لهذه الأسماء المحنطة التى قبلت أن تدخل فى هذه المنافسة البلاستيكية.. منافسة انتخاب الرئيس؟ وما لكما تجهدان أنفسكما فى أن تثبتوا لنا أن السيد الصباحى يصلح رئيسًا للجمهورية..؟»

يا سادة..

لقد ثبت أن أسهل وظيفة فى التاريخ هى وظيفة رئيس الجمهورية المصرية، وثبت أن أسهل شعب يمكنك أن تحكمه هو شعب مصر.. الله يرحم المماليك وتجار الدخان اللى ميعرفوش ولا كلمة عربى.. وكنا بنركع لهم..»

* * *

وفى أمريكا التى ابتعد فيها السيد النحال عن حلبة الأحداث الساخنة راح يتابع ما يدور بعيدًا عنه باهتمام وتركيز عبر الفضائية المصرية .

ولم يكن بحاجة إلى قناة أخرى من تلك القنوات التى تجهد نفسها ومراسليها فى متابعة ومطاردة المجازر التى يقيمها الأمريكان للعراقيين، والمذابح التى يقيمها اليهود للفلسطينيين.. ويتعجب لعزوف هذه القنوات عن متابعة الشىء الأهم.. الانتخابات المصرية.. أول حالة انتخاب رئاسية حقيقية فى العالم العربى.. ومقرها مصر.. الحالة التى رسمها بنفسه للرئاسة شأن كل ما كان يرسمه من خطط ومؤامرات للمحيطين به :

«عنتر مكاوى ، فوزية حمدان ، فايز فودة ، حشمت بركات ، العظماء الخمسة، إخوته: بدير عوض، عنتر عاشور، معالى الوزير أمير، وأخيرًا فتيان فتيان، وولديه..»

«كل هؤلاء لا ذنب لى نحو من سقط منهم: «فوزية ، بدير وحشمت وفتيان «إنه القدر نفسه الذى نال من «طاهر وفريد ورأفت «دون أدنى تدخل منى..»

«أما من نجا منهم، فذلك لأنهم اتبعوا نصائحى».

هكذا قال لنفسه وهو يتابع سير نصائحه فى انتخابات الرئاسة.

وفى انتقاله الهنىء من منتجع صحى فى ولاية إلى منتجع جديد فى ولاية أخرى لم يكن مهمومًا إلا بمطاردة شىء واحد هو الزمن.

الزمن الذى زحف ببعض التجاعيد على وجهه والصدأ والتسوس فى بعض أسنانه والصلع فى رأسه.. والترهل فى وزنه.. ناهيك عن ساقه التى فقدها ـ أو التى كما قال عنها سرقت منه ـ فى غفوة نام فيها عن نملة فى جحر النقمة البعيدة، لكن هذه النملة تمكنت منه فكلفته ساقه..

التجاعيد اللعينة اختفت، وظهرت مكانها نضارة مباغتة بدت فى جلد الوجه الناعم المشدود.. والصلعة اللعينة اختفت هى الأخرى تحت شعر جديد زرعوه فى فروة رأسه.. والأسنان المتآكلة ذهبت إلى صندوق القمامة وزرعوا له مكانها أسنانًا جديدة ثبتت فى لحم الفك وصار يمكنها تذويب قشر البندق بأزيد من كفاءة الكسارة.. أما الساق البديل المذهل فهو ينثنى ويتمدد ويستجيب لكل مطالب صاحبه..

ولم ينس فحولته، فقد استدعاها ومطلبه فى ذلك هو حفظ كرامته أكثر من إرضاء لياليه القادمة مع فتياته الصغيرات أو غانياته المجربات.

* * *

وراح يرنو بعين الحب والرجاء أن تسير مواكب الخير العميم فى طريقها المرسوم فى مصر وأن تظل الإشارة الخضراء مضاءة، ودروبها مفتوحة، وراح يتمعن فى الأسماء التى تقدمت لمنافسة السيد الرئيس فى انتخابات الرئاسة وعرف أن هؤلاء الخاسرين سلفًا يرفعون سيوفًا خشبية فوق أحصنة تموء كالقطط، وتساءل عن المدة التى يمكن فيها لقطة أن تصهل كالجواد، وجاءت الإجابة من عنده فى شكل ضحكة استهجان، ثم غمغم:

ـ «الانتخابات بها حصان واحد.. ومجموعة من القطط المنتقاة»

وعندما أعلن فوز الرئيس على منافسيه وتوليه الحكم لولاية خامسة أسرع السيد النحال بتجهيز حقائبه للعودة الميمونة إلى الوطن الحنون وهو يدندن بأغنية شبابية قائلًا: «فلتنزع القطط رءوسها من فوق هامات الخيول.. ولتظل الخيول الأخرى بلا أدمغة، وليذهب صهيلها إلى حناجر القطط لتموء. مواء الخيول»

وفى حفل تنصيب الرئيس المنتخب كان السيد النحال يقف منتصب القامة فى خلفية المنصة وابتسامته الواسعة تشع بالبياض وتومض بالبريق، فكل شىء فيه مشع وجديد.

وبعد الحفل تحرك الرئيس مغادرًا المنصة، فتحرك خلفه طابور طويل من وجوه القوم ليودعوه حتى باب سيارته.

الكاميرا تلتقط ضحكاتهم الرائقة، وابتساماتهم البيضاء، ووجوههم الشابة اللامعة الحليقة.. هذا هو عنتر مكاوى يقف على خط واحد مع أصهاره: عنتر وعاشور وعرفة النحال، وكلهم من كبار رجال الحزب الوطنى.. إنهم يطلقون للبهجة ابتساماتهم. وللفرحة أكفهم المصفقة، ويرسلون للسيارة التى تتهادى على مهل برئيسهم المفدى دعوات السلامة .

فهذا هو السيد النحال يداعب جاره الوزير اللامع «أمير النحال».. الكاميرا اصطادت ابتساماتهما فى لقطة عابرة.

وهذا هو السيد فايز فودة يقترب منهما بابتسامة مشرقة وكف ممدوة لمصافحة شائقة وهذان هما صاحبا حدوتة «شجرة أبى» يراقبان ما يدور أمامهما على شاشة التلفاز باستسلام من يعرف أن هذا هو الأمر الطبيعى الذى لا أمر بعده ، لكنهما ـ على أية حال ـ يكتبان تعليقهما كلٌّ على حدة فى أوراق صغيرة تمهيدًا لتغذية المدونة بآراء وتعليقات طازجة المشاعر حول هذا الموكب التاريخى المثير، وكان أول ما خطر على بال معاذ فريد سؤال من أسئلته المشاغبة نوى أن يصكه هكذا:

ـ «ما الذى يمكنك أن تتذكره إذا شاهدت طابورًا واحدًا يضم كل أبناء النحال ومعهم عنتر مكاوى وفايز فودة؟»

ثم رصد جائزة ثمينة للإجابة الصحيحة..

وها هو حسن رأفت يقترح عليه أن يختتما هذه الفقرة بهذا القول:

ـ «فاز المواطن» سلامة سعد أبو الخير «بجائزة المدونة الثمينة وهى عبارة عن أول «أستيكة» تم صنعها أخيرًا فى مصر بنجاح منقطع النظير، وذلك عن إجابته التى قال فيها:

ـ « أعرفكم بنفسى اسمى «سلامة».. وأصله ندامه.. ثم «سعد».. وصحته: شقاء، ثم

«أبو الخير»؛ حيث لا خير فى حياتى.. فأنا خريج كلية التجارة عام ١٩٩٤ ومنذ أحد عشر عامًا لم أعثر على وظيفة، ولن أعثر.. أتدرون لماذا؟.. لأن الطابور الذى يضم الأسماء التى ذكرتموها ذكرنى بمليارات الجنيهات المنهوبة من البنوك، ثم ذكرنى بملايين العاطلين مثلى.. فهل هناك علاقة بين النهب والبطالة؟»

وكانت الجدة خميسة عفيفى ترعى حفيدها بعيدًا عن ولدها ياسر المشغول بمشاهدة التلفاز عندما ناداها أن تسرع إليه بالحضور.

أسرعت إليه وجدته يصلح من وضع نظارته الطبية فى مكانها، ثم يقترب من الشاشة بوجه هلع وفك متدلٍ:

ـ «انظرى معى يا أمى..»

اقتربت أمه من التلفاز وولدها يكمل حديثه متسائلًا:

ـ «أليس هذا هو السيد النحال؟ أم أننى مخطئ فى رؤيتى؟»

أمعنت خميسة النظر فى الشاشة وهى تصلح من شأن نظارتها وتدقق النظر فى وجوه كلّ المحيطين بالرئيس فعرفتهم جميعًا، ثم تمتمت:

ـ «لست مخطئًا.. إنه هو بالفعل»

ـ «لم يكن بهذا الشباب قبل السفر إلى أمريكا»

ـ «إنها مطالب التجديد»

ـ «لقد اقترب عمره من السبعين»

ـ «الرئيس نفسه يقترب من الثمانين ويتمتع بهيئة ابن الأربعين.. فما الذى يزعجك؟»

ومدت إصبعها، فأطفأت التلفاز بامتعاض:

ـ «لا تبحث عن قناة أخرى.. فسوف تجدهم على كل القنوات.. فهؤلاء هم رجال المهمة القادمة.. مهمة التخطيط لمستقبل أحفادنا.. فهم الذين سيتولون حكمهم أيضًا..»

ـ «أىّ مهمة؟.. وأىّ تخطيط؟.. هل نسيت حديثك السابق يا أمى عن الديكور والطلاء؟.. كلّ هؤلاء ليسوا سوى جثث مزخرفة.. كلهم يحاولون صلب طولهم مواراة لانحناء ظهورهم..»

ـ «وسوف يعيشون بظهورهم المحنية طويلًا طويلًا.. فالانحناء هو شرط البقاء»

ناداها حفيدها من غرفته فاتجهت إليه مسرعة، ثم تمهلت قائلة لولدها:

ـ «الطغاة لا يشيخون يا ياسر»

ولما عادت وبيدها صغيرها أكملت عبارتها:

ـ «والموتى أيضًا... لا يشيخون»

(تمـــت)

القاهرة. الإسكندرية. كفر الشيخ

من ٧/ ١٠/ ٢٠٠٤

إلى ٢٥/ ٩/ ٢٠٠٧

obeikan.com